الحضارة وقضية التقدم والتخلف

د. محمد ربيع

- ١ -

ان عملية التقدم عملية مركبة ومعقدة تشارك فيها مختلف الانظمة التي تعمل في المجتمع ، تؤثر فيها وتتأثر بها . وينتقل المجتمع من خلالها من واقع حياتي معين الى واقع حياتي جديد يكون اكثر انفتاحا على العلم واقوى على توفير مختلف متطلبات الانسان الحياتية . ولما كانت متطلبات حياة ورفاهية الانسان قد تطورت كثيرا على مدى العصور ، وان متطلباته المادية لا زالت تخدم هدف اشباع رغباته وتطلعاته غير المادية فان مقاييس التقدم والتخلف في عصرنا هذا امتزجت بعضها مع بعض لتصوغ لنا مقاييس جديدة هي – بالتأكيد – نتاج تجربة الغرب الحضارية على مدى القرنين الاخيرين من عمر الانسانية .

ولما كان تحقيق الاهداف المعنوية يرتبط ارتباطا قويا ومباشرا بتحقيق الاهداف المادية ، فان عملية تحقيق الاهداف اي عملية التقدم ذاتها ، تصبح عملية واحدة ذات شقين متلازمين، احدهما معنوي والآخر مادي . ولما كانت المقاييس المعنوية للتقدم والتخلف لا تخضع لعمليات الحساب والتقييم الدقيقة وانها بطبيعتها معايير نسبية ، فقد اصبحت المقاييس المادية اكثر اهمية واقوى تعبيرا عن مدى التقدم او التخلف الذي يتحقق لشعب من الشعوب . ولهذا يلاحظ ان المقاييس المادية للتقدم والتخلف في هذا العصر لم تحتل المكانة التي كانت تشغلها المقاييس المعنوية في العهود الغابرة فحسب ، بل انها احتوت في داخلها كل ما عداها من مقاييس اخرى ، لتصبح وحدها التجسيد الحقيقي للتقدم والتخلف بشقيه المادي والمعنوي معا .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يلاحظ ان استمرار ارتفاع متوسط دخل الفرد في المجتمعات الغربية كان قد اقترن بتوفير قدر اكبر من الحرية لشعوب تلك البلاد ، مما نتج عنه زيادة درجة استمتاع الفد بحياته وتعميق درجة تفهمه للمعنى الحقيقي لحريته . وحتى في المجتمعات الاشتراكية مثل الاتحاد السوفييتي يلاحظ ان عملية الانفتاح في الداخل والخارج لا زالت تسير يدا بيد مع عملية التقدم الاقتصادي في تلك البلاد . ولهذا ، يصبح لزاما على الامم المتخلفة ان تأخذ بمقاييس العصر الذي تعيش فيه ان هي ارادت تحقيق التقدم الاقتصادي في بلادها وقيام الظروف الموضوعية التي تعمل على توفير الحرية والعدالة لشعوبها .

وبناء على ما تقدم ، نرى ان اصرار البعض على اتباع مقاييس معنوية للتقدم والتخلف تعتمد على التراث الانساني لبعض الحضارات القديمة وعلى بعض المفاهيم الغيبية الحالمة لا يمكن اعتباره الا قصورا في الادراك او تهربا من تحديات العصر وحقائقه يقود الى تبرير التخلف ويعمل على تعميق اسبابه .

- ٢ -

ان الانسان في سعيه لاشباع رغباته انما يتحرك من خلال البيئة التي يعيش فيها حيث تتوافر له عوامل مادية واخرى معنوية ، تؤثر فيه وتتأثر به وتعمل كقوى جذب ودفع في وقت واحد . ولهذا ، تقوم بين مختلف عناصر البيئة الانسانية حركة تفاعل مستمرة يتم من خلالها صياغة سلوك مختلف الافراد والجماعات وتحديد الصفات والخواص التي تميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات الانسانية الاخرى . ومن خلال عملية التفاعل تلك تتحدد العلاقات التي تربط الناس بعناصر البيئة التي تكتنفهم وتتقرر المستويات المختلفة لحياة الانسان اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، فتتقدم بعض المجتمعات

---

* د. محمد ربيع ، استاذ الاقتصاد في جامعة الكويت .

ويتخلف بعضها الاخر · واذا كانت عناصر الانتاج المتوفرة لمجتمع من المجتمعات في فترة زمنية محددة تقوم برسم الحد الاعلى لما يمكن انتاجه ، فان التنظيم الانساني للعملية الانتاجية يقوم بتحديد وسيلة الانتاج ودرجة كفاءتها وكمية المنتج وكيفية توزيعه ، وبالتالي يحدد قدرة المجتمعات الانسانية المختلفة على استغلال امكانياتها ومدى الاستفادة الممكنة من مواردها المتاحة ·

ان وسيلة الانسانفي استغلال موارده وامكاناته تتلخص في كونها مجموعة من القيم والاهداف التي يؤمن المجتمع بها ويعمل على تحقيقها ، وجسم من المعرفة والمعتقدات التي يتحرك منها وبها · اي انها نموذج حضاري معين له خواصه وصفاته التي تميزه عن غيره من النماذج الحضارية الاخرى مما يجعله يلعب دورا بارزا في تطور المجتمعات وتقدمها او في جمودها وتخلفها · اذ ان القيم الحضارية لكل مجتمع من لمجتمعات تقدم للفرد فيه طريقه لحل مشاكله الحياتية ، وذلك من خلال العلاقات التي يرتبط بها وبناء على النظم والقوانين المتعارف عليها ، كما انها تستثير ردود الفعل عنده بناء على القيم التي يؤمن بها واستجابة للعادات والتقاليد التي نشأ عليها ·

وبناء على ما تقدم تصبح الحضارة بمفهومها العام الاطار الذي يتحرك الانسان من خلاله وتتحدد معه تطلعاته والقوة التي توجهه في تفكيره وتصرفاته فتحكم عليه بالجمود والتخلف او تقوده الى التطور والتقدم · وعلى العموم . يلاحظ ان مقدرة الانسان على تحقيق النجاح في محاولاته . وطبيعة المجهودات التي يبذلها من اجل زيادة انتاجه وتحسين مستوح حياته تتوقف على ثلاثة عوامل رئيسية هي :

١ ـ **البيئة الطبيعية** : وتشمل موارد الطبيعة وما يكتنفها من خيرات وعقبات · ومع انه كان على الانسان ان يكيف نفسه لظروف هذه البيئة في العهود الغابرة فقد استطاع في العصور الحديثة ان يحقق قدرا كبيرا من النجاح في رفع درجة استفادته من مختلف عناصرها وزيادة مقدرته على تكييفها لتتلاءم مع ظروف تحقيق اهدافه ·

٢ ـ **البيئة التكنولوجية** : وهي اداة الانسان التي يستخدمها في محاولاته لتكييف الطبيعة حيثيتوقف عليها مدى نجاحه في اخضاع مختلف عناصر تلك البيئة لادارته وتسخيرها لخدمة اغراضه ·

٣ ـ **البيئة الاجتماعية** : وتقوم هذه البيئة بتوفير الظروف الاجتماعية التي يتحرك الانسان من خلالها محاولا استغلال مختلف عناصر بيئته الطبيعية واشباعرغباتهالبيولوجية والاجتماعية·

ومع انه من الحقائق المسلم بها ان موارد الطبيعة محدودة وبالتالي يصبح من غير الممكن زيادتها ، فان تجربة الانسانفي العصور الحديثة تقودنا الى الشك في صحة هذا الادعاء · اذ ان ما يحدد كمية الموارد الطبيعية ويقرر مدى استفادة الانسان منها انما هو مستوى الفن الانتاجي السائد ودرجة المعرفةالعلمية المتوفرة وطبيعة استعدادات الانسان الحضارية · اذ امكن من خلال استمرار تقدم المعرفة العلمية والكنولوجية وتطوير مختلف استعدادات الانسان الحضارية اكتشاف المزيد من موارد الطبيعة واسرارها ، كما امكن زيادة درجةالاستفادة مما كان قد اكتشف · وهكذا فتح العلم امام الانسان امكانيات بلا حدود من اجل زيادة انتاجه ورفع مستوى معيشته وتحسين ظروف تحقيق اهدافه ·

ـ ٣ ـ

لقد كانت مشكلة البقاء اول المشاكل التي واجهت الانسان وهددته في وجوده ، اذ كان عليه ان يحافظ على حياته وان يؤمن لها امكانية البقاء والاستمرارية وذلك عن طريق توفير الغذاء اللازم لحفظ الحياة وتوفير الحماية اللازمة من اخطار الطبيعة · ولما كان على الانسان ان يحصل على مقومات حياته من خلال البيئة التي عاش فيها فقد كان عليه ان يتعامل مع بيئته بمختلف عناصرها ، يكيف نفسه لاوضاعها. ويحاول ان يكيفها لتتلاءم مع اوضاعه · وبسبب ضعف امكانيات الانسان الاول العقلية وانعدام توفر الامكانيات التكنولوجية كان تعامله مع البيئة شاقا وقاسيا ، مما جعل حياته في مراحلها الاولى محفوفة بالمخاطر والصعاب · الا ان نجاح الانسان في المحافظة على وجوده واستمراره كان قد ادى الى نمو قدراته العقلية وايجاد الادوات التكنولوجية التي ساعدته على تكييف بيئته الطبيعية واخضاع معظم عناصرها لارادته ·

وعلى العموم ، كانت محـــاولات الانسان المستمرة من اجل اخضاع بيئته الطبيعية لارادته واحكام سيطرته على مختلف عناصرها قد قادته الى المرور بمراحل عدة من التطور الحضاري املتها ظروف حياته وحتمتها تطلعاته وطبيعـة صراعه معمختلفعناصر بيئته ·وقد يكونبالامكان تقسيم تلك المراحل بوجه عام الى ثلاث مراحـــل رئيسية هي : سيادة البيئة ، احتدام صـــراع الانسان مع البيئة وسيادة الانسان ·

سيادة البيئـــة

لقد كانت هذه المرحلة اولى مراحل تعامـــل الانسان مع بيئته الطبيعية ، حيث خضع الانسان في بدايتها خضوعا كاملا لعناصر تلك البيئـــة وظروفها ، اذ كان عليه ان يكيف نفسه لاوضاعها وان يعيش على ما كانت توفره له من غـــذاء وملبس ومأوى ·

الا ان عدم قيام الطبيعة بتوفير غذاء كـاف للانسان وبشكل يمكن له التقـــاطه بسهولة ، مستخدما بذلك ملكاته العقلية ومعارفه الفنية كان يعني بالضرورة موت الانسان جوعـــا وزواله من الوجود · ولهذا حاول الانسان ان يكيف نفسه لظـــروف بيئته وان يتلاءم مـــع اوضاعها ، فاخذ يسير المسافات الطويلة بحثا عن الثمار ويتخذ من الكهوف مأوى يساعـده على مقاومة برودة الشتاء وقسوته · ولما كانت ظروف البيئة الطبيعية هي اهم العوامل التي قادت الانسان في اولىمراحـــل تطوره وقامت بتوجيه مختلف تصرفاته ، فقد ادت الى تشابه تقاليده وعاداته وطرق حيـــاته حيث تشابهت ظروف البيئة التي عاش فيها ·

ولما كان االانسان كما سبق القول ـ قد عاش متنقلا من مكان لاخر بحثا عن الغذاء والمأوى ، فقد بدأ يكتسب الخبرات من الطبيعة نفسها ، فعرف مواعيد تساقط الثمار كما تعلم صيـــد الحيوانات واكل لحومها · وعندما كان الانسان يمر اثناء تجواله بمجموعات بشرية اخرى كان يتبادل معهم المعرفة مما جعل مصادر خبراتـه تتكاثر ومقدرته على تكييف حياته تزايد ·

وفي هذه المرحلة بدأ صراع الانسان مـــع اخيه الانسان من اجل البقاء · اذ ان عدم تمكن الطبيعة من توفير الغذاء الكافي لكل من عاش عليها كان يقود الى صراع الانسان مع اخيه الانسان طلبا للطعام وبسببه · الا ان فشل الطبيعة في تزويد الانسان بما كان يحتاج اليه من طعام لم يؤد الى قيام صراع انساني فقـط بل قاد الانسان الى محاولة اجبار الطبيعة على انتاج حاجته من الغذاء ، وذلك من خلال تعاونه وتضامنه مع اخيه الانسان · وعندما كـــانت الادوات التي وفرتها الطبيعة غير كافية لتحقيق الغرض اتجه الانسان الى محاولة تطوير ادواته بنفسه وتكييفها لتتلاءم مع ظروف تحقيقاهدافه· وهكذا بدأ الانسان في صناعة ادواته مـــن الحجـــارة والعظام ، يستعملها في صيـــد الحيوانات وفي الدفاع عن النفس ، كما بـــدأ يستأنس الحيوان ويعيش مـــع غيره من الناس · ومع الزمن ، وعبر عملية تطور تدريجية بطيئة ، اصبح الانسان مخترعا اذ امكن له تطويـــر مستوى الفن الانتاجي باستمرار · وهكـذا ، اصبح بالامكان انتقال الانسان الى مرحلـــة اعلى من مراحل تطوره الحضاري كان الطابـع العام لها احتدام صراع الانسان مع بيئتـــه الطبيعية ونجاحه في تحقيق انتصارات متتالية عليهـــا ·

وربما كان بالامكان تلخيص اهـم مميزات المرحلة الاولى من مراحل التطور الحضاري في النقاط الست التالية :

١ ـ اتجاه الانسان الى الخضوع لعوامـــل بيئته الطبيعة مع استمرار محاولاته للتكيـــف معهـــا ·

٢ ـ اعتماده في غذائه على ما كانت توفره له الطبيعة من طعام ·

٣ ـ استبدال جزء من غذائه النباتي بغذاء حيواني . حيث امكن له صيد بعض الحيوانات والاستفادة بلحومها وجلودها ·

٤ ـ بدء صراع الانسان مع اخيه الانسان وتعاونه معه وذلك بسبب الطعام ومن اجـــل توفير مختلف مقومات البقاء ·

٥ ـ بدء صراع الانسان مع مختلف عناصر بيئته الطبيعية وتمكنه من تحقيـــق انتصارات محدودة عليها ·

٦ ـ تحقيق بعض الاختراعات والاكتشافات المهمة ، والتي قد يكون اهمها :

أ ـ اختراع الاقواس والسهام ، حيث لعبت دورا مهما في صيد الحيوانات وفي عمـليات الدفاع عن النفس وشن الحروب ·

ب ـ اكتشاف النـــار حيث استعملت فـــي

الوقاية من البرد وفي عمليات طبخ الطعام ،ومن ثم في صناعة بعض الادوات المعدنية ·

جـ ـ استئناس الحيوانات ، حيث امكن استخدامه في زيادة انتاج الطعام وفي عمليات الانتقال والرحيل ·

صراع الانسان مع البيئة

لقد بدأ صراع الانسان مع البيئة منذ اللحظة الاولى التي بدأ فيها حياته على هذه الارض · اذ ان محاولات الانسان للتكيف مع اوضاع بيئته الطبيعية لم تكن الا اول صورة من صور صراعه مع عناصر بيئته المختلفة · الا ان صراع الانسان مع البيئة في تلك المرحلة كان قد اتخذ شكلا سلبيا ، وذلك لان الانسان كان يبذل معظم جهوده من اجل تكييف نفسه لاوضاع بيئته · اما في المرحلة الثانية فقد غلب على الصراع طابع الايجابية ، حيث كانت معظم جهود الانسان توجه الى البيئة نفسها وذلك بغرض اخضاع مختلف عناصرها لسيطرته وتسخيرها لخدمة اهدافه ·

وفي اثناء هذه المرحلة تم للانسان اكتشاف الزراعة حيث بدأ الانسان يتعرف على المزيد من امكانات الطبيعة ويقوم بتطوير مختلف ادواته التكنولوجية لاستغلالها · ومع ان الانسان باكتشافه للزراعة كان قد اكتشف اهم وسائل انتاج طعامه ، الا انه لم يحل بذلك مشاكله مع البيئة التي عاش فيها · اذا كان عليه ان يطور نفسه بالشكل الذي تتطلبه مهنة الزراعة ، وان يوفر لديه القدرة على تحمل اعبائها · وبعد اكتشاف الانسان للزراعة واتجاهه الى الاعتماد عليها كمصدر من اهم مصادر انتاج غذائه ، بدأت عملية اكتشاف وتطوير مختلف ادواتها ووسائلها · ويعتقد ان اكتشاف الانسان للزراعة جاء حوالي ٦٠٠٠ ق· م عندما استطاع الانسان ان يزرع اول محصول له على ضفاف دجلة والفرات · ومن العراق انتقلت الزراعة الى سوريا ومنها الى مصر ، حيث استمرت في الانتقال من مكان لاخر لتصل الى اوروبا في حوالي سنة ٢٠٠٠ ق · م ·

ان استقرار الانسان على قطعة معينة من الارض واتجاهه الى الاعتماد عليها في انتاج غذائه خلق لديه دافع الملكية، اذ اصبحت الارض بما تقدمه من طعام ترمز الى الخير والحياة وتتطلب من الانسان ان يقوم بحمايتها والدفاع عنها · ولقد كانت الملكية الزراعية في اول مراحل تطويرها جماعية ومؤقتة ، حيث كانت القبيلة تملك الاراضي التي تعيش عليها وذلك طوال فترة استقرار القبيلة على الارض وتمتعها بالمقدرة على حمايتها · الا ان اتجاه الانسان الى الاستقرار الدائم على الارض كان قد أدى تطور نزوع الانسان الى ملكية الاشياء بكافة اشكالها ، فظهرت بجانب الملكية الخاصة او الملكية الفردية · كما ان قيام القبيلة بحماية الارض والدفاع عنها ضد القبائل الاخرى ، أوجب قيام تنظيمات سياسية واجتماعية ودينية قادرة على خلق وحدة القبيلة والمحافظة على تماسكها وحيويتها· وبذلك تكون عملية الالتصاق بالارض قد حددت مدى واتجاه التطور الانساني ، كما قادت الى ظهور مختلف الانظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية واعطتها اهم مميزاتها ، وبالتالي عملت على تحديد شكل ومقومات النموذج الحضاري الذي افرزته مهنة الزراعة وكان عليه ان يعايشها ويتعايش معها ·

فقيام مجتمع القرية واستمراره كان يتطلب ايجاد درجة كبيرة من التناسق والتجانس الاجتماعي بين العائلات المختلفة المكونة له ، مما ادى الى ظهور وحدة العقيدة او الشعار وقاد الى انبثاق ما يمكن تسميته بالحكومة والقانون · ولما كانت مهنة الزراعة ـ في حد ذاتها ـ مهنة مركبة وتحتاج الى العديد من العمليات المتنوعة ، فقد ظهر التخصص في العمل حيث اخذت مختلف الاعمال الحرفية والتنظيمات الاجتماعية والاقتصادية تتبلور ، كما اخذت تقوم باداء دورها في خدمة المجتمع الانساني ومده بمقومات بقائه واستمراره · وبينما قادت الزراعة الى اعادة تنظيم حياة المجتمعات الانسانية المختلفة ، حتمت مهنة الزراعة على الانسان ان يقوم بتطوير أدواتها التكنولوجية، فظهر الفأس والمحراث واستعملت الحيوانات في خدمة الاهداف الزراعية ، وتطورت طرق الري وأساليبه المختلفة · ولقد كان من نتيجة ذلك كله ، زيادة الاستفادة من مياه الانهار وزيادة الانتاج الزراعي وزيادة التصاق الانسان بالارض وارتباطه بها ·

وعلى اثر نجاح الانسان في انتاج فائض زراعي زاد معدل تكاثر السكان كما ظهرت الحاجة الى قيام عمليات التبادل السلعية بين المجتمعات الانسانية المختلفة ، مما قاد الى تطور وسائل المواصلات البرية والمائية ، فظهرت العربات تجرها الحيوانات والمراكب تطفو على سطح الماء ، تنقل الانسان وبضائعه من مكان لاخر وتساهم في تطور حضارته وتقدمها · وهكذا ، يكون استقرار الانسان اثر تطورحياته الاقتصادية بانتقاله الى زراعة الارض أساس تطور حياة المجتمعات الانسانية القديمة ، ونقطة انطلاقها الاولى نحو بناء حضارات متطورة ، وطفرة اعطت لفكرة التقدم الحضاري ميلادها ·

وبينما حددت ظروف الطبيعة وأوضاع البيئة مكان نشوء الحضارات القديمة ، قامت الحياة الاقتصادية بتحديد مدى تطور تلك الحضارات واتجاهها · ففي العراق حيث كانت الطبيعة اكثر كرما وعطاء منها في امكنة أخرى ، ظهرت الحضارات القديمة بعظمتها وروعتها ، فظهرت قوانين حمورابي وشيدت الحدائق المعلقة ونجح البابليون في اخضاع الكثير من الاراضي لسيطرتهم · ولما كانت الطبيعة في العراق قد وفرت للانسان القديم الماء والشمس والارض الخصبة فقد اتجه الانسان الى الأستقرار الدائم على الارض ، حيث ساعدته ظروف البيئة على المضي قدما في زاعة الارض واستغلالها وبناء القرى واستيطانها دون أن تواجهه مشاكل مستعصية لم يكن باستطاعته التغلب عليها · ولهذا لعبت البيئة الطبيعية الدور الاكبر في ظهور المجتمعات الزراعية الاولى على ضفاف دجلة والفرات كما ساهمت مساهمة فعالة في تطورها وتحديد خط سيرها العام ·

اما في وادي النيل ، وعلى الرغم من ان اوضاع البيئة الطبيعية هناك كانت شبيهةباوضاع البيئة في العراق ، فقد واجهت قدماء المصريين مشكلة حياتية ، اعتمد على اسلوب مواجهتها تقدم القبائل المصرية القديمة واتجاه تطورها · اذ أن مياه الفيضانات التي كان يحملها النيل اليهم كل عام كانت مصدر خير ومصدر دمار في ان واحد · ففي السنوات ذات الفيضان المعتدل كان النيل يحمل معه الطمي والماء ، فيزيد من خصوبة الارض ويروي المزروعات ، وبالتالي كانت تلك السنين سنين خير زاد فيها الدخل وتحسن المستوى المعيشي للسكان · اما في السنين ذات الفيضان العالي فقد كان النيل يترك وراءه الدمار والخراب ، يهدم القرى ويغرق المزروعات ، وبالتالي يحرم القبائل التي سكنت على ضفافه من وسائل بقائها وتطورها · وفي بعض السنين التي كانت تقل فيها الامطار في مناطق افريقيا الاستوائية كان النيل يخيب امال المصريين ويحرمهم من مصدر حياتهم الوحيد · وهكذا خلق النيل بتقلباته وضعا اقتصاديا واجتماعيا مضطربا ، افقد القبائل المصرية القديمة شعورها بالاستقرار والطمانينة وحتم على قدماء المصريين ان يختاروا بين بديلين لا ثالث لهما :

أ ـ الاتجاه نحو تطوير بيئتهم الاجتماعية والاقتصادية وذلك بخلق جهاز تنظيمي ملائم يكون باستطاعته ان يقوم بتطوير واختراع الوسائل والادوات التكنولوجية القادرة على تقليل مخاطرالفيضانات وتحقيق اكبر استفادة ممكنة من مياه النيل ·

ب ـ الحفاظ على اوضاعهم التقليدية ونظمهم الاجتماعية والاقتصاديةالقائمة، وبالتالي اللجوء الى الهرب من واقع حياتهم المحفوفة بالمخاطر وظروف بيئتهم القاسية ·

ويعتقد بعض المؤرخين ان سكان جنوب السودان يرجعون باصلهم الى القبائل المصرية القديمة التي رفضت تحدي الطبيعة لها فهربت الى اعالي النيل في جنوب السودان ، في محاولة للحفاظ على طرق حياتها التقليدية وتوفير اكبر قدر ممكن من الاستقرار والطمانينة لاعضائها · الا أن القبائل برحيلها كانت قد فقدت عنصر التحدي الوحيد الذي كان من الممكن ان يقود الى تطورها وتقدمها ، وبالتالي عملت ومن حيث لا تدري على استمرار وتعميق أسباب تخلفها · ولهذا ، بقيت المجتمعات الانسانية في جنوب السودان تعيش حياة بدائية متخلفة دون ان يطرأ على نمط حياتها تغيير اساسي يكون من شأنه أن يقوم بارساء أسباب التقدم والتطور لها ·

اما القبائل المصرية الاخرى والتي بقيت تصارع الطبيعة وتحقق انتصارات متتالية عليها ، فقد كان تحديها لقسوة بيئتها الطبيعية نطقة الانطلاق الاولى نحو بناء اقدم واعرق حضارة عرفها التاريخ · اذ يستدل من الاثار

التي تركها قدماء المصريين من بعدهم ان حضارة الفراعنة بلغت قمة في تطورها وتقدمها · فبينما عرفت القراءة والكتابة قامت لديها صناعات متقدمة كصناعة النسيج والزجاج والزخارف ، وبينما اقامت نظاما معقدا ومفصلا للادارة وتوزيع مياه النيل استطاعت ان تقيم دولةموحدة وحكما مركزيا قويا في مساحة زاد طولها على ١٢٠٠ من الكيلو مترات · وهكذا ، قادت ظروف الحياة الاقتصادية قدماء المصريين الى ارساء أسباب التطور والتقدم لديهم ، وذلك لان نجاح محاولاتهم في ايجاد الحلول المناسبة لمواجهة مشكلتهم الحياتية الاولى ادى فيما بعد الىانتاج فائض غذائي وانساني استخدم في تشييد الاهرامات والمقابر والمعابد بكل روعتها الفنية والمعمارية ·

وفي هذه المرحلة من مراحل تطور الحياة الانسانية وحيث كان اعتماد الانسان كبيرا على الطبيعة وارتباطه قويا بالارض ، ظهرت الديانات المختلفة التي ارتبطت بالطبيعةواستمدت قوتها من أسرار الكون وغيبياته · فبينما عبد الاقدمون النار والاحجار ، اتجه غيرهم الى استرضاء الانهار وتقديس الابقار ، كما عمد البعض الاخر الى استجداء الامطار · وبينما ارتبط النظام الديني لبعض الديانات الاسيوية بنظام الطبقات القائم على ملكية الارض، اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بنظام الاقطاع الذي ساد اوروبا في العصور الوسطى ، كما قامت على تدعيمه واستغلال امكاناته ·

وبينما كان الانسان يقوم بتطوير ادواته من اجل زيادة مقدرته على انتاج غذائه ، كانت المعرفة الفنية والتنظيمية تتراكم لديه ، مما جعله يستخدمها في زيادة الانتاج وتحويل الناتج الى صور واشكال اكثر فائدة واعم نفعا · ومع توصل المجتمعات الانسانية القديمة الى انتاج فائض زراعي امكن قيام تبادل تجاري بين المجتمعات المختلفة ، مما ترتب عليه زيادة درجة التخصص في العمل وظهور انماط جديدة من المجتمعات الانسانية وتطوير مختلف وسائل الاتصال وطرق المواصلات · ولما كان التبادل التجاري في مراحله الاولى يتم عن طريق المقايضة وفي حدود ضيقة فقد ظهر التاجر المتجول والصانع المتجول ، حيث ساهما عن طريق النقل والاقتباس والابتكار في انتشار مختلف الاساليب الحضارية وتقدمها ·

ولما اصبحت التجارة مهنة محددة وذات وظيفة اجتماعية هامة ظهرت الحاجة الى ايجاد وسيلة فعالة للتبادل ، مما قاد الى ظهور النقود بصورها المختلفة وانتشار تداولها بين الناس · ومع تقدم التجارة وظهور النقود تطورت الاساليب التجارية وظهرتالمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية التي ارتبطت بالتجارة وقامت على خدمة أهدافها · وبذلك تكون التجارة قد لعبت دورا بارزا في تقدم المجتمعات الانسانية وتطورها ، حيث امكن بواسطتها توسيع قاعدة تقسيم العمل وامداد الانسان بالكثير من السلع والخدمات التي تعذر عليه انتاجها ، وقيام تفاعل انساني وتكنولوجي بين المجتمعات الانسانية المختلفة المتباعدة ، ،وبالتالي دفع حركة التطور الانسانية ، الاجتماعية والاقتصادية ، خطوات كبيرة الى الامام ·

وعلى الرغم من ان صراع الانسان مع الطبيعة لا زال قائما ، فان نجاحه في تحقيق انتصارات متتالية على مختلف عناصرها كان قد ادى الى تضاؤل اثر البيئة الطبيعية في تطور الحياة الانسانية · ومع ان انتصارات الانسان على البيئة جاءت بطيئة للغاية وبصورة تدريجية ، الا انها سارت بثبات وبشكل متسارع في بعض الاحيان وذلك لان كل اختراع تم التوصل اليه كان يفتح المجال امام حدوث المزيد من الاختراعات والاكتشافات · وفي حوالي منتصف القرن الثامن عشر حدث تغير جذري في أساليب الانتاج وطرقه المختلفة ، ترتب عليه اعادة تنظيم حياة الكثير من المجتمعات الانسانية ·

لقد كان حدوث الثورة الصناعية نقطة تحول كبرى في حياة الانسانية ، اذ ترتب على قيامها حدوث تطور كبير في اساليب الانتاج التكنولوجية وطرق التفكير الانسانية · ولقد كان من نتيجة ذلك ان اصبح بمقدور الانسان ان يخضع معظم عناصر بيئته لارادته وان يعيد تشكيلها بما يتلائم وظروف تحقيق اهدافه واشباع رغباته · ومع اكتمال الثورة الصناعية ونضوجها اصبح من المحتم على الانسان ان يعيد تشكيل حياته بما يكفل له تحقيقاكبراستفادة ممكنة من انجازاته التكنولوجية ، وبالتالي انتقل الانسان من خلال صراعه مع البيئة الى مرحلة

ارقى من سابقتها . تميزت بتفوق العقل البشري على عوامل الطبيعة وسيادته عليها ·

سيادة الانسان

لقد جاء قيام الثورة الصناعية نتيجة لجهود مضنية بذلها الانسان عبر تاريخه الطويل على هذه الارض . وبسبب عوامل اقتصادية متعددة اتخذت من اوروبا مسرحا لها طوال عدة قرون · لقد بدات الثورة الصناعية مع ظهور المصنع وانتشاره حيث اصبح الصورة الطاغية لتنظيم عمليات الانتاج الصناعية · وعلى الرغم من ان الثورة الصناعية جاءت نتيجة لمجموعة كبيرة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية المختلفة ، فان زيادة الطلب على المنتجات الصناعية ، وحدوث بعض الاكتشافات العلمية ، وقيام حركة اصلاح دينية وثقافية ، كانت من اهم العوامل التي دفعت بحركة التصنيع الى الامام وقادت في النهاية الى انتشار الثورة الصناعية وسياده اساليبها التنظيمية وطرقها الانتاجية ·

ففي اولى مراحل التصنيع كان التاجر يشتري بضائعه من الحرفيين الذين كانوا يعملون في منازلهم ثم يقوم بجمعها ونقلها الى الاسواق الداخلية حيث يتوفر الطلب عليها او يقوم بتصديرها للخارج · وهكذا ، كان دور التاجر يقتصر على دور الوسيط بين المنتج والمستهلك ، اذ كان الحرفي في هذه المرحلة يملك وسائل الانتاج جميعها · اما في المرحلة الثانية ، ومع زيادة الطلب على المنتجات الصناعية ، بدا التاجر يقوم بشراء المواد الخام وتوريدها للحرفيين الذين اصبحوا يعملون لحسابه ويتقاضون اجرا مقابل عدد القطع التي يقومون بصناعتها · وبينما استمر الحرفي يعمل في بيته ويمتلك وسائل الانتاج بنفسه ، فقد ملكيته للمواد الخام ومعها جزءا من حريته · اذ كان عليه في مقابل استلامه للمواد الخام واستلافه بعض المال من التاجر الذي يعمل لحسابه ان يقوم بتصنيع المواد الموردة اليه وتسليمها طبق لجدول زمني محدد · وفي المرحلة الثالثة ، مرحلة الثورة الصناعية ، ظهر المنظم للعملية الانتاجية وظهر معه المصنع في اشكاله وصوره المختلفة · وفي ظل هذا النظام اصبح العمال يعملون في مكان واحد ، هو المصنع ، وتحت ادارة واحدة ، هي ادارة المنظم الذي اصبح في ظل نظام الانتاج الجديد يقوم بامتلاك المصنع وادوات الانتاج فيه · وهكذا ، فقد الحرفي ملكيته لادوات الانتاج ، وأصبح عاملا صناعيا يعمل لحساب صاحب العمل ويتقاضى أجرا بناء على ما يقوم به من عمل في داخل مصنع يمتلكه غيره . وطبقا لانظمة ولوائح معينة تحدد مواعيد العمل وشروطه ·

ومع تقدم التكنولوجيا الصناعية وانتشار حركة التصنيع اخذت حاجة القطاع الصناعي الى الايدي العاملة تتزايد ، كما اخذ ابتكار ادوات وآلات زراعية حديثة ساعدت على رفع الانتاجية الزراعية وقامت بتوفير الغذاء الكافي للاعداد المتزايدة من السكان ، وبالتالي شجعت القطاع الزراعي على الاتجاه نحو التخصص ·

ومع اتجاه الزراعة الى التخصص والانتاج من اجل السوق اتسع نطاق حركة التسييج في اوروبا مما ادى في النهاية الى زوال نظام الاقطاع واختفاء الروابط الاجتماعية والاقتصادية التي سادت في ظله · ولقد كان من نتيجة ذلك ظهور طبقة من العمال الزراعيين ، سرعان ما تحولت الى طبقة من العمال الصناعيين (البروليتاريا) وذلك بسبب ضيق امكانيات العمل في الزراعة وتزايد الطلب على الايدي العاملة في الصناعة· ولطبقة البروليتاريا يعود الفضل الاكبر في تطور الصناعة الاوروبية وتقدمها ، وذلك لانها وفرت لها عنصرا من أهم عناصرها ، وهو عنصر العمل وبتكاليف تكاد تكون معدومة ·

ان عملية الانتقال من حياة الزراعة ونظام الاقطاعية الى حياة الصناعة ونظام المصنع ، او من العيش على ناتج الارض وفي ظل تقاليد المجتمع الاقطاعي وارتباطاته الى العيش في الاحياء الفقيرة وعلى كد الانسان وعرقه . كانت من اقسى العمليات ، واكثرها كرها لنفس الانسان واعمقها تعارضا مع طبيعته · اذ أن حياة الصناعة وما تبعها من نمط حياتي جديد فرضت على الانسان عادات وتقاليد جديدة كان من الصعب عليه استيعابها بسرعة ، وبالتالي تكييف نفسه بالشكل الذي كانت تتطلبه ويتمشى مع طبيعتها · ولهذا ، جاءت عملية الانتقال بطيئة ومؤلمة حيث استغرقت وقتا طويلا من الزمن وقاسى بسببها الملايين من الفلاحين والمعدمين ·

ومع اجتياز المجتمعات الاوروبية لمرحلة

الثورة الصناعية أمكن الانتقال بالزراعة من كونها مهنة وطريقة في الحياة الى حيث أصبحت مهنة فقط وعملا اقتصاديا يهدف الى الحصول على الربح · ومع حدوث هذا التغير الكبير في العلاقات الانتاجية تغير مفهوم الملكية الزراعية · اذ اصبحت النظرة اليها تتلخص في كونها أحد مصادر الثروة المهمة وليست المصدر الوحيد لها · ونتيجة لهذه النظرة الجديدة للزراعة ، ومع ظهور المولين الكبار في التجارة والصناعة وازدياد أهميتهم ونفوذهم ، انتقل مركز الثقل في المجتمع الاوروبي من كونه ملتصقا بالارض ليصبح ملازما للمال في اشكاله وصوره المختلفة · وهكذا ازدادت أهمية رأس المال في المجتمعات الصناعية مما جعل مركز القوة في تلك المجتمعات ينتقل من أيدي العسكريين والسياسيين الى أيدي الرأسماليين والصناعيين ·

وبناء على هذه التغيرات التي شملت كافة أوجه الحياة في اوروبا تغير مفهوم العمل بالنسبة للمجتمعات الصناعية ، خاصة بالنسبة للعامل الصناعي ، اذ أصبح سلعة قيمة تباع وتشترى في السوق ، اذ أصبح سلعة قيمة تباع الانتاج له مواصفات وخصائص معينة تميزه عن غيره من عناصر الانتاج وتحدد قيمته الاقتصادية · ومع انتشار المصنع وازدياد أهمية الآلة أخذ رأس المال يشق طريقه كأحد عناصر الانتاج التي لا غنى عنها ، والتي أصبح من غير الممكن ان تتم عملية التصنيع الحديثة بدونها · وهكذا، ظهر المجتمع الحديث بعلاقاته الاقتصادية والاجتماعية الجديدة كما تبلورت لديه عناصر الانتاج الرئيسية الثلاثة : الارض والعمل ورأس المال في صورها وأشكالها المختلفة ·

ومع تقدم التكنولوجيا الصناعية وظهور علاقات انتاجية جديدة تغيرت الاسس التي قامت عليها العلاقات الانسانية في ظل الانظمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القديمة · فبينما كان نظام الاقطاع في العصور الوسطى يقوم على الاكتفاء الذاتي ويجعل ارتباط الفلاحين والعبيد بالارض وبالسادة الاقطاعيين قويا ، وذلك من خلال ايجاد مسؤولية متبادلة بين الطرفين ، أصبح العامل في ظل النظام الجديد مالكا لانجازاته ومسؤولا عن اخطائه ، وبالتالي أصبح عليه ان يعمل من أجل أن يوفر لنفسه امكانية الحياة وان يكافح من اجل رفع مستوى معيشته · وبينما كانت الاقطاعية في ظل النظام القديم تشكل وحدة اقتصادية واجتماعية وسياسية في آن واحد ، قادت الثورة الصناعية وما ترتب عليها من تغيرات الى اختفاء تلك الوحدات واندثارها وذلك من خلال الغاء دورها من حياة المجتمعات الصناعية الحديثة ·

ومع تقدم المعرفة العلمية وتطور الوسائل التكنولوجية أمكن تطوير وسائل الاتصال بين المجتمعات الانسانية المختلفة ، مما أدى الى تقلص المسافات الطويلة واختفاء الموانع الطبيعية · ومع سهولة الانتقال من مكان لآخر أمكن قيام تفاعل انساني بين مختلف الاجناس التي تسكن بقاع العالم المتباعدة ، كما أن تطوير وسائل الاتصال المرئية والمسموعة والمقروءة ساعد على قيام تفاعل حضاري خلاق شمل مختلف الحضارات الانسانية ، البائدة منها والمعاصرة من جهة مما أدى الى ربط مختلف اجزاء العالم بروابط وثيقة من الاهداف المشتركة والمشاكل العامة ·

وكنتيجة لعاملي التقدم العلمي والتكنولوجي من جهة أخرى، أمكن تحقيق معدلات متزايدة من التقدم والتطور، بحيث أصبح باستطاعة الحضارة الانسانية المعاصرة أن تحقق من التقدم في عام واحد ما لم تستطع تحقيقه في قرون طويلة قبل عدة مئات من السنين · ومع حدوث مثل هذا التغير والتطور في طريقة حياة الانسان وأسلوب تفكيره أصبح بالامكان استخدام المنجزات التكنولوجية والعلمية الحديثة للاسراع في تطوير مختلف أوجه الحياة وتحقيق المزيد من التقدم لها ، وفي تذليل مصاعب البيئة الطبيعية واكتشاف المزيد من أسرارها · وهكذا استطاعت الحضارة الانسانية القائمة على التصنيع والتكنولوجيا الحديثة أن تحقق سيادة الانسان على الطبيعة ، وان تجعل من خيالاته حقائق ثابتة أو تصورات قابلة للتحقيق ·

- ٤ -

لقد بدأت مرحلة الثورة الصناعية في حياة الانسان عندما أصبح بامكانه أن يحقق بعض الفائض في انتاجه ، حيث أخذ يوجه ذلك الفائض الى عمليات الادخار والاستثمار المختلفة ، وذلك عن طريق المساهمة في بناء رأس المال وتوسيع العمليات الانتاجية · ومع ظهور رأس المال وتطور استخداماته في العملية الانتاجية امكن

زيادة الانتاج ، وبالتالي زيادة مقدرة الانسان على رفع معدلات الاستهلاك والاستثمار معا · وهكذا ، أمكن تحقيق معدلات نمو متزايدة ، وذلك لان زيادة الانتاج تقود ـ في العادة ـ الى زيادة الادخار ، وان زيادة الادخار تقود الى نمو رأس المال ، وبالتالي تساعد على رفع معدلات الانتاج وزيادة العمالة ·

واذا كان انتاج الفائض يساعد على زيادة الادخار ، فان هذا لا يعني ـ بالضرورة ـ زيادة الاستثمار ، وبالتالي زيادة الانتاج وتحقيق معدلات نمو عالية · فهنالك اقطار كثيرة في العالم توفرت لها ظروف خاصة مكنتها من الحصول على فائض انتاجي كبير استثمر في مجالات شتى دون ان يكون بمقدوره المساهمة في رفع معدلات النمو الاقتصادية بما يتناسب مع حجمه · يضاف الى هذا ، أن بعض المجتمعات الانسانية القديمة التي استطاعت انتاج بعض الفائض كانت قد سخرت فائض انتاجها في خدمة اهداف الملوك والقادة واشباع رغباتهم ونزواتهم على غرابتها وشذوذها ، وبالتالي ساهمت في استغلال جهود الكثيرين من الناس واستعبادهم، وذلك بدلا من أن تكون أحد وسائل تحررهم وأداة من أدوات تقدمهم ·

الا ان ما حدث في اوروبا عقب قيام الثورة الصناعية كان قد ساعد على خلق الظروف الموضوعية الملائمة لاستثمار المدخرات وتحقيق اكبر استفادة ممكنة منها ، وذلك من خلال استخدامها في بناء رأس المال وزيادة الانتاج · وبينما أمكن توجيه معدلات متزايدة من الفائض الى بناء رأس المال ، ساعد التقدم العلمي على خلق فرص جديدة من أجل استثمار المدخرات واستغلال مختلف اشكالها · وبينما ساعدت وسائل المواصلات والاتصال الحديثة على توسيع رقعة السوق وربط مختلف أجزاء العالم بعضها الى بعض ، ساهمت حركة التطور الحضارية في توسيع مدارك الناس ومنحهم قدرا أكبر من حرية العمل والقول ·

وعلى العموم ، كان على الانسان في المجتمعات الغربية التي عاشت الثورة الصناعية أن يعيد تشكيل حياته بالشكل الذي يتلاءم مع أهمية الآلة ودورها ويتمشى مع أسلوب الانتاج الجديد · ومن خلال تعامل الانسان مع الآلة مر الانسان في ثلاث مراحل مهمة ، نوجزها فيما يلي : ـ

١ ـ تحكم الانسان في الآلة وتحمله عبء ادارتها : ان انتشار استخدام الآلة في مختلف العمليات الانتاجية وقيام الانسان بادارتها يعتبر أساس قيام الثورة الصناعية ومظهرا من أهم مظاهرها · اذ انتقل الانسان من استخدام قواه الجسدية في ادارة العملية الانتاجية الى استخدام قوة البخار والكهرباء في ادارة الآلة التي اصبحت تقوم بالانتاج لصالحه وتبعا لمخططاته · وبينما بدأت هذه المرحلة أثر قيام الثورة الصناعية ، اي في نهاية القرن الثامن عشر ، فانها بقيت تسود العملية الانتاجية وتطبعها بطابعها العام لمدة من الزمن تزيد على مئة وخمسين عاما ·

٢ ـ تحكم الانسان في الآلة مع قيامها بادارة غيرها من الآلات : لقد بدأت تتضح معالم هذه المرحلة في اوائل الخمسينات من هذا القرن ، وذلك اثر تمكن الانسان من استخدام الآلة في ادارة العملية الانتاجية ، اذ اصبحت تقوم بالاشراف على غيرها من الآلات بكفاءة · ولقد كان من نتيجة ذلك أن بدأت الآلة تحل محل الانسان في ادارة العملية الانتاجية ، اذ اصبحت تقوم بالاشراف على غيرها من الآلات تبعا لما يضعه الانسان لها من مخططات وبرامج · ومع توصل الانسان الى هذه المرحلة أمكن توفير نسبة كبيرة من العمل الانساني الذي كان يستخدم اصلا في ادارة العملية الانتاجية وتحويله من قطاع الانتاج الى قطاع الخدمات ·

ان ما حدث في الخمسينات من هذا القرن هو ما يطلق عليه « الانتاج الذاتي » Automation ، حيث امكن باستخدام هذا الاسلوب في الانتاج تصنيع مختلف السلع دون استخدام قوى الانسان الجسدية والعقلية الا بالقدر الذي تتطلبه عملية مراقبة الآلات ، وذلك للتأكد من انها تقوم باداء عملها بانتظام وطبقا لما وضع لها من مخططات· ولقد كان لهذا التطور الكبير اثره في حياة المجتمعات الصناعية ، اذ ترتب عليه اعادة توزيع القوى العاملة بين قطاعات الانتاج والخدمات المختلفة ، واعادة تقييم النظم الادارية وتطوير استعدادات الانسان الحضارية وتنمية خبراته الفنية والعملية ·

٣ ـ مساهمة الآلة في توجيه قدرات الانسان وترتيب أفكاره : ويمكن اعتبار منتصف الستينات

من هذا القرن البداية الحقيقية لدخول الآلة الى مجال الخدمات ، حيث اخذت الآلات الحاسبة الالكترونية Computer تستخدم في توجيه قدرات الانسان ومساعدته على ترتيب افكاره · اذ بعد أن كان مجال الآلة الرئيسي يقتصر على قطاع الانتاج أصبح بالامكان استخدامها في مجالات اخرى متنوعة ، وقد يكون اهمها حتى الآن استخدامها في الاعمال المحاسبية والاستعانة بها في عمليات التخطيط واجراء البحوث العلمية وتحليل نتائجها ·

ومع تطور الآلات الحاسبة الالكترونية تطورت طرق ومجالات استخدامها ، حيث اصبح بمقدورها أن تقوم بتخزين وترتيب المعلومات الكثيرة وبالمقادير التي لا يقوى العقل الانساني على استيعابها · ولقد كان من نتيجة ذلك أن ساعد هذا التطور على احداث ما يسمى « ثورة المعرفة » knowledge Revolution حيث اصبح بالامكان جمع المعلومات الدقيقة وتخزينها ثم استعادتها عند الضرورة بسرعة مدهشة لتكون تحت تصرف الانسان ، يستخدمها في تقييم خططه واتخاذ قراراته ·

- ٥ -

ان الآلة في تطورها وتطور مجالات استخدامها استطاعت ان تؤثر تأثيرا كبيرا في طريقة حياة الانسان، مما جعلها تقود الى تغيير واقعه وتساهم في اعادة تشكيل حياته · ولما كان استخدام الآلة قد انتقل من مجالات الانتاج المختلفة الى مجال الخدمات وان دورها لا يقتصر على محاولة اشباع رغبات الانسان المادية فقط ، بل ويمتد لاشباع قدر متزايد من رغباته المعنوية واحتياجاته النفسية ، فان قضية الانسان في هذا العصر اصبحت تعتمد اعتمادا كبيرا على الآلة وترتبط ارتباطا مصيريا بها · ولما كان اثر الآلة في حياة الانسان قد تشابه حيث تشابهت طبيعة الآلة وطريقة استخدامها ، فان مدى وطبيعة التغير الذي احدثته الآلة في حياة المجتمعات الانسانية التي عاشت الثورة الصناعية يكاد يكون واحدا ·

واذا كانت الزراعة في المجتمعات المتخلفة تعتبر مهنة وطريقة في الحياة ، فان الشعوب المتقدمة في القرن العشرين تقودنا الى الاعتقاد بان الزراعة اخذت تتراجع عن مكانتها السابقة لتصبح مهنة فقط ، بينما تقدمت الصناعة لتحتل مكانتها ولتصبح مهنة وطريقة في الحياة · ولهذا ، يمكن القول أن المجتمعات الصناعية المتقدمة اصبحت ذات قيم حضارية مشتركة ، تربطها عوامل التشابه اكثر مما تفرقها عوامل الاختلاف ، وذلك لان اسلوب حياتها واحد تقريبا وتطلعات شعوبها متقاربة الى حد كبير · وعلى سبيل المثال ، يلاحظ ان طريقة حياة وتطلعات سكان مدينة نيويورك لا تختلف عن طريقة حياة وتطلعات سكان مدينة لندن او باريس اكثر من اختلافها عن طريقة حياة وتطلعات سكانمدينة الاباما الاميركية·وانهعلى الرغم من ان انتفاضات الشباب في كل من فرنسا واميركا واليابان وحتى المكسيك كانت قد انطلقت دون تخطيط واضح ودون اتفاق مسبق فيما بينها ، فانها قامت لتعبر عن مشاعر الشباب وتطلعاتهم والتي عكست قدرا كبيرا من التشابه والانسجام ·

وعلى الرغم من تشابه الادوار التي لعبتها كل مرحلة من مراحل التطور في حياة المجتمعات الانسانية ، فان اختلاف القيم الحضارية ومستوى الفن الانتاجي من شعب لآخر قاد الى اختلاف مستوى التقدم الذي استطاع كل شعب ان يحققه في مراحل تطوره المختلفة · ولما كان التطور الحقيقي للمعرفة العلمية والتكنولوجية قد جاء متأخرا ، وانه تم في فترة قصيرة وبسرعة مدهشة، فان امكانية الاستفادة الحقيقية من تلك المعارف تحتم على المجتمعات المتخلفة ان تطور قيمها الحضارية واسلوب تفكيرها بسرعة كبيرة وبشكل جذري كشرط اساسي لتحقيق ما نبغيه من تقدم ·

ومن خلال تجربة التصنيع والتخصص ، وبسبب التطور الكبير الذي حدث في طبيعة النظام الاقتصادي ودوره ، أصبح لزاما على المجتمعات الصناعية التي عاشت الثورة الصناعية ان تكيف نفسها للقادم الجديد وان تطور مختلف انظمتها الاجتماعية بالشكل الذي يساعد النظام الاقتصادي على اداء دوره ويساهم في دفع حركة التقدم في المجتمع الى الامام · ولذلك وقع المجتمع بكافة انظمته وعلاقاته تحت تأثير النظام الاقتصادي وتنظيماته ، حيث اخذت العلاقات الاقتصادية تطغى على كافة علاقات المجتمع وارتباطاته · وبسبب اختلاف المجتمعات الانسانية وتبا : اهدافها اختلفت نظرتها الى اهمية العامل الاقتصادي في حياة الانسان ودوره في توجيه سلوكه ، والتالي حول موقع النظام الاقتصادي من

حركة التطور الانسانية بوجه عام ·

وللما كانت المقاييس المادية للتقدم والتخلف اصبحت وحدها التجسيد الحقيقي للتقدم والتخلف بشقيه المادي والمعنوي معا، فان اهمال اثر العامل الاقتصادي في تقدم الشعوب او الاقلال من اهمية دوره في قيادة عملية التطور في المجتمع كان سببا من اهم اسباب التخلف بالنسبة للكثير من شعوب العالم ·

واذا كانت الحضارة بما تمثله من طريقة في الحياة واسلوب في التفكير تشكل الاطار العام الذي يتحرك المجتمع ـ اي مجتمع ـ من خلاله ، فان قضية التقدم والتخلف في عصرنا هذا اصبحت ترتبط ارتباطا وثيقا بالعامل الاقتصادي وموقعه من حياة المجتمع بوجه عام · ولما كانت الحضارة العصرية قد اصبحت ـ كما سبق يضاحه ـ ترتبط ارتباطا وثيقا بالآلة وتعتمد اعتمادا كبيرا على ما يتحقق لها من تقدم ، فان الحضارات التي تعتمد على الكلمة وترتبط بالرمز اصبحت ـ بحكم منطق العصر ـ حضارات غير عصرية · ولما كانت ظروف انطلاق وتكوين تلك الحضارات قد اعطتها قيما وتقاليد معينة هي بالتأكيد نتاج تجربة الانسان مع مختلف عناصر بيئته في عهود ما قبل الثورة الصناعية ، فان تلك الحضارات اصبحت ـ بحكم الواقع ـ حضارات محافظة غير تقدمية · وهكذا يتحدد دور الحضارة في قيادة عملية التطور والتقدم في المجتمع مما يجعل قيم المجتمع الحضارية وأساليبه المعيشية هدف محاولات التطوير والتغيير ونقطة البداية الحقيقية نحو الانطلاق الى تحقيق التقدم والتحرر الذي تبغيه مختلف شعوب العالم ·

المراجع

1 - Ayres, C.E., The Theory of Economic Progress, (New York : Schocken Books, 1962)

7 - De Gregori, Thomas, Economic Development : the Cultural Context, (New York : John Wiley and Sons, Inc., 1969)

4 - Blackmar, Frank, History of Human Society, (New York: Charles Scriber's Sons) 1926.

6 - Childe, Gordon, Man Makes Himself, (New York : Mentor Books, 1958)

5 - Chase, Stuart, The Proper Study of Mankind, (New York, Harper & Row, Publishers, 1956).

14 - The Conflict of Traditionalism and Modernism in the Moslim Middle East, (Austin: The University of Texas, 1966).

2 - Bagrit, Leon, The Age of Automation, (Harmonds Worth: Penguin Books, 1965.

9 - Kerr, Clark, Industrialism and Industrial Man, (New York: Oxford University Press, 1964.

14 - Novack, George, Uneven and Combined Development in History, (New York : Merit Publishers, 1966)

3 - Birnbaum, Norman and Lenzer, Gertrud, Editors, Sociology and Religion, (Englewood Cliffs : Prentice - Hall Inc., 1969).

10 - Landes, David, The Rise of Capitalism, (New York : The Macmillan Company, 1966).

8 - Gilfillan, S.C., The Sociology of Invention, (Cambridge : the M.I.T. Press, 1970).

11 - Larsen, Egon, A History of Invention, (London: Phoenix House, 1961).

12 - McGuire, Joseph, Theories of Business Behavior, (Englewood Cliffs : Prentice - Hall, Inc., 1964)

13 - Moore, Wilbert, The Impact of Industry, (Englewood Cliffs : Prentice - Hall, Inc., 1965).

15 - Whitehead, Alfred, Science and Modern World (New York - The Macmillan Co., 1925.

16 - Williams, Earl, Retouling Our Human Resources for the Spage Age, (Houston : The University of Houston, 1967.